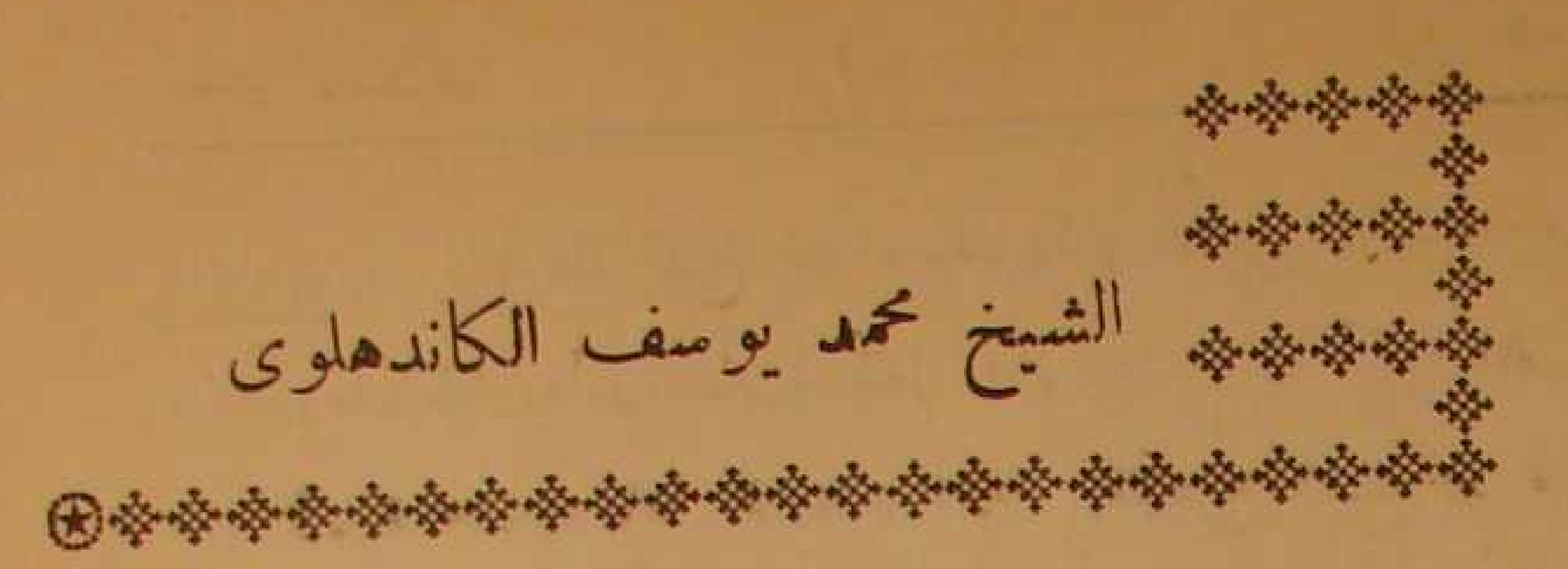


الشيخ محمد يوسف الكاندهلوى

الأستاذ محمد الثانى الحسنى
تعريب : سعيد الأعظمى الندوى



فى غربى الولاية الشمالية بمديرية « مظفر نكر » فى الهند قريتان : اسمهما « جهنجهانه » و « كاندهله » تسكنهما أسرة علمية ذات شرف و دين ، و قد عاش جد هذه الأسرة الكبير الشيخ محمد أشرف فى عهد « شاه جهان » ملك الهند ، واتفق العلماء فى عصره على تدينه و ورعه و اتباعه للسنة ، و قد أنجبت هذه الأسرة كبار العلماء و الشيوخ منهم الشيخ إلهى بخش الذى عرف بفضله و ذكائه ، وكان من نجباء تلاميذ الشيخ عبد العزيز بن الشيخ ولى الله الدهلوى و خليفة الامام الشهيد السيد أحمد البريلوى ، ألف أربعين كتاباً باللغتين العربية و الفارسية و شرح القصيدة الشهيرة « بانت سعاد » ، توفى سنة ١٢١٥هـ ، ومنهم الشيخ أبو الحسن ، والشيخ نور الحسن ، والشيخ مظفر حسن ، والشيخ محمد إسماعيل ، وفى الأخير الشيخ محمد إلياس ، كلهم كانوا دعاة إلى الله و من كبار العلماء فى عصرهم .

ولادته : الشيخ محمد يوسف بن الشيخ محمد إلياس من هذه الأسرة العريقة ، ولد فى دهلى فى ٢٥ جمادى الأولى ١٣٣٥هـ المصادف ٢٠ مارس ١٩١٧م يوم الأربعاء ، و سماه والده محمد يوسف .

منشأه : أدرك الشيخ محمد يوسف كبار الشيوخ والعلماء ، وشهد منذ نعومة أظفاره أسرة عامرة بالعلم و الورع ، و قد أكرم الله نساء هذه الأسرة بجنب رجالها بالورع و الدين ، فترعرع الشيخ محمد يوسف فى هذا المحيط العلمى الدينى ، و فى أحضان الأمهات الصالحات ، و بين عطف الشيوخ وعناية العلماء .

الدراسة : حفظ القرآن الكريم و هو ابن عشر سنين و بعد ما تلقى العلوم الابتدائية أتم دراسة الحديث الشريف فى مدرسة مظاهر العلوم بسهارنفور على كبار شيوخ الحديث كالشيخ عبد اللطيف . مدير المدرسة الأسبق ، و الشيخ منظور أحمد خان و الشيخ عبد الرحمان الكامل فورى ، والشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوى الذى كان موجه الشيخ محمد يوسف و المشرف على تربيته ، و ابن عمه الكبير . تخرج الشيخ محمد يوسف فى الحديث الشريف سنة ١٣٥٤هـ .

اشتغاله بالعلم : كان الشيخ محمد يوسف ولوعاً بالعلم من أول عمره فكان يقضى أكثر وقته فى دراسة الكتب و مطالعتها ، و تاقت نفسه إلى التأليف أيام دراسته الحديث الشريف . حتى بدأ تأليف شرح مستفيض على « شرح معانى الآثار » للطحاوى ، باسم « معانى الأحبار » و استمر ذلك العمل إلى آخر أيام عمره .

المبايعة و الخلافة : إن البيئة التى ولد فيها الشيخ محمد يوسف و ترعرع كان فيها رواج كبير للاتصال بالشيوخ والمبايعة ، ولذلك فان أعضاء الأسرة كلهم كانوا يتصلون بالشيوخ الموجهين ويكتسبون منهم علم الباطن ، وقد بايع الشيخ محمد يوسف والده العظيم الشيخ محمد الياس

مؤسس جماعة التبليغ الذى كان يعتبر من كبار الدعاة فى عصره ، وقد استخلف الشيخ محمد الياس رحمه الله ولده الشيخ محمد يوسف و فوض إليه أمانة الدعوة و التبليغ فى ٢١ رجب سنة ١٣٦٣هـ حينما لبى نداء ربه ، و مضى إلى الآخرة .

عمل الدعوة و التبليغ : فوجئ الشيخ محمد يوسف بتحول كبير فى حياته بعد وفاة والده ، فقد نشأ فيه دافع التبليغ و الدعوة ما جعله لا يهدأ له بال ولا يقر له قرار ، وذلك رغم اشتغاله بالعلم والتأليف ، و انصرف من كل شئ إلى الدعوة فقط و تحولت حياته إلى قلق و اضطراب يعيش فيهما كل لحظة ، و أصبح التبليغ شعاره و دثاره ، و قد تجشم فى سبيل ذلك كل مشقة و شدة ، وواجه كل عنت وارهاق بوجه باسم وقلب خاشع ، فاستمر فى إلقاء الخطابات والرحلات الدعوية، إنه نظم إجتماعات و لقاءات كثيرة بأدى ذى بدء فى مدن الهند و باكستان و قراهما و أريافهما ، و ألقى فيها خطباً استغرقت ساعات طوالا ، و وجه الجماعات إلى خارج دهلى متتابعة ، وكان يبذل كل وقته بدون كلال أو تعب فى عمل الدعوة و التبليغ ما دام فى مركز التبليغ بدهلى ، إذ لم يكن يستريح فى الليل و النهار ، إلا ساعتين أو ثلاثاً أما بقية وقته فكان يقضيها فى القاء الخطب ، والكلام فى المجالس، وحلقات التعليم ، و إجتماعات الشورى .

الرحلات الدعوية : أما الرحلات التى قام بها الشيخ محمد يوسف لتعميم عمل الدعوة والاجتماعات التى عقدها لنشر فكرة التبليغ فى الناس فكثيرة لايأتى عليها الحصر ، إنه فى خلال حياته الدعوية التى تمتد على

عشرين سنة عقد ٥٣ حفلا كبيراً فى مختلف مدن الهند الكبرى ، وقام برحلات واسعة جداً ، وسافر إلى باكستان الغربية والشرقية بعد التقسيم ١٦ مرة ، و ألقى فيها خطابات هامة فى حفلات كبيرة منقطعة النظير خرجت منها جماعات كثيرة إلى أنحاء بعيدة وأقطار نائية ، وذلك عدا الاجتماعات العادية الكثيرة التى لا يمكن إحصاؤها .

الدعوة و التبليغ فى الحجاز و الأقطار العربية الأخرى : كان الشيخ محمد يوسف جد حريص على أن يرى عمل الدعوة و التبليغ ينتشر فى مهد الاسلام مكة و المدينة و ينال من أهلها إقبالا وعناية ، و كان يعتقد أن هذه الدعوة إذا تأصلت جذورها فى هـذه الأرض المقدسة تستطيع أن تنتشر فى العالم كله ، عن طريق المسلمين الذين يجتمعون فيها لتأدية فريضة الحج كل عام من جميع أنحاء العالم ، ولذلك فقد بدأ الشيخ محمد يوسف عمله أولا فى ميناء كراتشى و بمباى ، حيث أقامت جماعات التبليغ تغرس فكرتها فى الحجيج الذين يزورون مكة و المدينة ، فاذا تشربوا فكرة الدعوة و التبليغ يتمكنون من التأثير فى إخوانهم العرب ، و يصبحون خير أداة لنشر الدعوة بينهم ، ولم يكتف بذلك بل تجول على البواخر فى جماعات الحجاج ، و أخذهم بالتعليم و التوجيه ، ووصل إلى الحجاز فزار مقرهم وبعث العلماء إليهم يتناولونهم بالتربية . و أسست جماعات التبليغ و أقيمت حلقات التعليم فى الحرمين الشريفين .

و لما تعددت رحلات جماعات التبليغ فى الحجاز ، و بدء يستأنس حجاج الأقطار العربية الأخرى بعمل التبليغ هذا طولب من قبلهم

بارسال بعثات تبليغية فاستجاب نداء هاتيك الأقطار وأرسل جماعات إلى أقطار عربية مختلفة ، و أول ما توجهت الجماعات إليه مصر و السودان والعراق ، وما أن مضت مدة كثيرة إذ بدأ هذا العمل ترسخ قواعده فى الأقطار العربية ، و يستأنس به العامة و الخاصة جميعاً واتصلوا به ، حتى خرج فى سبيله العلماء مع العامة و توافدوا على مركز نظام الدين التبليغى بدهلى لدى الشيخ محمد يوسف ، كما بدأ الشيخ محمد يوسف إرسال بعثات تبليغية إلى مختلف أنحاء آسيا و أفريقيا و أوربا عدا الأقطار العربية ، و قد نفث فى أعضاء هذه البعثات بكلامه المخلص الفياض روحاً ضافية حثتهم على تحمل النفقات الباهظة التى تكلفها هذه الرحلات البعيدة .

الحج : تشرف الشيخ محمـد يوسف بالحج ثلاث مرات ، ففى المرة الأولى سافر للحج مع والده الشيخ محمـد الياس سنة ١٣٥٦هـ ، و فى المرة الثانية مع الشيخ حسين أحمد المدنى عام ١٣٧٤هـ ، وقد تمكن فى هذه المرة من عقد اجتماعات التبليغ واللقاء مع طبقة العلماء فى شأن الدعوة ، أما الحجة الثالثة الأخيرة فقد تشرف بها فى سنة ١٣٨٣هـ قبل وفاته بعام و معه جماعة كبيرة . فاستطاع عقد اجتماعات كبيرة فى الحجاز و التجوال فى القرى و المدن فيها ، و اللقاء مع الجماهير ، كما بعث وفوداً كثيرة إلى الأقطار البعيدة ، وإن الجماعات التى سافرت إلى البلاد الأوربية عدا الأقطار العربية كان عددها ٢٦ جماعة ، و قد أكرمه الله باقبال الناس عليه فى هذه الرحلة ، فكان يستقبل الناس عامة وعلماء من الصبح الباكر إلى المساء ، ويتحدث معهم حول الدعوة بدون انقطاع أو كلال ، و قد تمتع الشيخ محمد يوسف بعمرتين سوى

الحج ، واعترف معه جماعات كثيرة من الأقطار المختلفة .

الوفاة : قام الشيخ محمد يوسف برحلة طويلة إلى باكستان بعد عودته من الحج بعام ، بداها يوم ١٠ من شوال ١٣٨٤ هـ المصادف ١٢ فبراير ١٩٦٥م وانتهت بوفاته – رحمه الله – يوم أول ابريل ١٩٦٥، و قد زار الشيخ محمد يوسف جميع المدن الكبرى فى باكستان الشرقية و الغربية كلتيهما ، و عقد فيها اجتماعات كبرى لا يوجد لها نظير فى التاريخ القريب فى كثرة الوافدين عليها و الحاضرين فيها ، و قد لقى الشيخ فى هذه الرحلة من التنقلات إلى البلدان المجاورة و الخطابات فى الحفلات و الكلام فى المجالس واللقاءات المستمرة مع العامة والخاصة ، ما أتعب قلبه و كل خاطره ، وأثر على صوته المدوى المجلجل ، وأورثه السعال و الحمى ، و لكنه لم يبال بشئ من ذلك ، و استمر فى أداء واجبه رغم كل هذا التعب والمرض ، وأخيراً ألقى كلمة فى حفل بلاهور قبل عودته إلى الهند بيوم على شدة مرضه و تعبه ، ولقد اشتد مرضه بعد الانتهاء من إلقاء كلمته ، فأسرع به الناس إلى مقره و ماكاد يصل إليه حتى غشى عليه ، و ظل يعانى من الشدة و الألم طول الليل و فى اليوم التالى وكان يوم الجمعة نقل إلى المستشفى ولكنه قبل أن يصل إليه استأثرت به رحمة الله ، فانا لله و إنا إليه راجعون .

كان رحمه الله يقرأ قبل الوفاة هذه الكلمات « لا إله إلا الله ، الحمد لله الذى أنجز وعده ، لا إله إلا الله محمد رسول الله ، الله أكبر الله أكبر ، الحمد لله الذى أنجز وعده و نصر عبده ، و هزم الأحزاب وحده ، لا شئ قبله و لا بعده ، لا شئ قبله و لا بعده ،

لا شئ قبله و لا بعده ، وحينما احتضر كان يقرأ الكلمة الطيبة و الأدعية المأثورة من النبى ﷺ ، وكانت تعلو البسمة على وجهه بعد ما توفى .

و قد كان وصوله إلى المستشفى بعد الوفاة فحاول الأطباء إسعافه ولكن دون جدوى ، واستيقن الناس بالوفاة ، وساد الحزن على الناس و الجو ، و طار الخبر إلى البلد و اجتمع حشد من الناس إلى جنازته وصلوا عليه فى لاهور صلاتين ، ثم حمل جثمانه ليلا إلى دهلى بالطائرة ، وصلى عليه ما يقارب سبعين ألف مسلم وقت شروق الشمس و قد أم بالناس فضيلة الشيخ المحدث محمد زكريا ، ودفن بالجانب الغربى من قبر والده الشيخ محمد الياس فى نظام الدين بدهلى .

خصائصه و مميزاته : لقد أكرم الله سبحانه وتعالى الشيخ محمد يوسف بخصائص ثمينة جمة ، ولاشك أن الشغف الزائد بالدعوة إلى الايمان بالغيب و اتساع الانهماك و قوة التأثير الذى تمتع به الشيخ محمد يوسف يتعذر نظيره فى التاريخ المعاصر ، و قد وجد فى شخصيته الفذة خصائص كثيرة علافيها كعبه . فان قوة إيمانه و توكله على الله ، وهمته العالية وشجاعته وصلاته الخاشعة ودعائه الخالص ، واطلاعه الواسع على حياة الصحابة الكرام رضى الله عنهم واتصاله العميق بأحوالهم ، واهتمامه البالغ باتباع السنة ، و فهمه للقرآن ، و استخراجه النتائج عظيمة من حياة الأنبياء عليهم السلام ، وقوة جمعه بين الأعمال المتباينة من التأليف والدعوة ، وقلقه و اضطرابه ، و إيمانه و ثقته بالله و توكله وثقته بنفسه ، ودعوته العامة و حماسه الخطابى ، و صبره و عزيمته ، و جهده المتواصل و تواضعه ، واتصاله الشديد بالله ، ثم شدة اعجاب الناس به ، كل ذلك نواح لامعة وصفات عظيمة فى حياته ، يصدق بها أولئك الآلاف المؤلفة من الناس الذين قضوا معه بعض الوقت أو سعدوا برفقته فى سفر .

إنه عند ما كان يلقى كلمته حول صفات الله و ذاته ، و ضآلة

الأسباب ، و صدق وعد الله ، بأسلوبه الخطابي الأخاذ حول مستمعيه لمدة من الزمان من عالم المادة إلى عالم يقوم على الايمان بالغيب وحده ، وعندما كان يوجه الدعوة إلى الناس ويدعوهم إلى الله أبهرهم بانهماكه الشديد في دعوته ، و انصرافه التام إلى عقيدته ، و لذلك كانت خطاباته و صحبته لها تأثير عظيم في نفوس المستمعين و الوافدين عليه ، فقد كانت تتغير حياتهم من أول يوم حتى في الشكل ، و الأخلاق و المعاشرة ، و طريق التفكير و الكلام .

أما دعاؤه فكان له تأثير عجيب في النفوس ، كان لايترك الحاضرين إلا وأبكاهم أحر البكاء وجعلهم يتململون ويضطربون كالسليم ، لايتمالكون على أنفسهم و لا يشعرون بما حولهم ، و ارتج الجو بصوت آمين .

لم يقتنع الشيخ بما أكرمه الله به من التوفيق والقوة والعزة بل إن قلقه المتزايد ، و اضطرابه الشديد ، و سرعته النادرة كل ذلك مكنه من إنجاز الأعمال في أقل مدة وأسرع وقت ، وقد حالفه التوفيق فافتتح ارسال الجماعات إلى أقطار جديدة و بلاد جديدة ، وأصبح له العالم كله كوطنه الأصلي .

إنه نفخ في عبادة الحج روحاً جديدة و جعله وسيلة للدعوة و التبليغ ، و عقد اجتماعات كبيرة حافلة حاشدة من الناس تضاءلت أمامها المؤتمرات السياسية الكبيرة ، و كل هذه الأعمال أنجزها الشيخ محمد يوسف في خلال عشرين عاماً فقط ، واهتدى به خلق كثير أنعم الله عليهم بالورع والتذوق في العبادة و العاطفة الجياشة عن طريقه - رحمه الله - .

خواطره و أحاسيسه : كان يرى الشيخ محمد يوسف أن الحفلات العامة و دراسة الكتب وحدها لا تغير في الوضع و لا يبعث دافع الايمان و الثقة في النفس ، و كان يرى من اللازم تغيير الباطن وتزكية الأخلاق و الأعمال ، و إجلال العلم و العلماء ، و الثورة الدينية في النظام كله ، و التضحية و الكفاح ، و الاتصال بالله ، و تحمل المشاق في سبيله ، و احترام الأصول و المبادىء ، و الاجتماعات الدينية و الاتصال بالجماهير . و تشكيل الجماعات ، و مطالبة إنفاق النفس والمال في سبيل الله ، و حلقات التعليم ، و الشورى ، و الدعاء ، و قد مر هو نفسه بهذا الطريق و مهده لكثير من الناس .

مؤلفاته : وكان له شغف كبير بتأليف الكتب عدا جميع هذه الأعمال و الأشغال التي كان له فيها سهم كبير ، و كان رائدها ، و من الجدير بالذكر في مؤلفاته كتابان أحدهما « أماني الأحبار » الذي يحتوي على مجلدات ضخمة ، و هذا الكتاب دليل على سعة اطلاعه على الحديث و الآثار و عمق نظره في التفقه و المعرفة ، ثانيهما « حياة الصحابة » و فيهما شهادة كافية على تبحره في العلوم و السنة و التاريخ الاسلامي و أحوال الصحابة رضي الله عنهم ، و لا شك أنها ذخيرة علمية نادرة و مرآة لحياة الصحابة الدعوية و سلوكهم و أخلاقهم و لهذا الكتاب تأثير أي تأثير .

أهله وأولاده : خلف الشيخ محمد يوسف ولداً نجيباً اسمه الشيخ محمد هارون ، و أهله ، و والدته التي توفيت بعد وفاته بخمسة أشهر يوم ٢٨ من شهر أغسطس سنة ١٩٦٥م .